سوريا أجمل بدون المزة

د. عبد الستار قاسم

25/ شعبان/ 1421

إغلاق سجن المزة عبارة عن قرار تاريخي أتى على رمز من رموز القهر والاستبداد في الوطن العربي. حمل المزة في غرفه المعتمة وجدرانه الصماء وظلماته المرعبة كل معاني القمع الإنساني والتخلف السياسي العربي، وكان من تلك المجموعة السجنية الرهيبة في وطننا العربي الكبير مثل سجون أبو زعبل والجفر وجنيد. اشتهر العالم بصروح علمية عظيمة ومواقع سياحية مدهشة ومؤسسات صناعية منتجة، واشتهرنا نحن العرب بأجهزة مخابرات تقوم بأدوار المسالخ والمقاصل وتدير معتقلات تتميز بكل فنون التعذيب والتنكيل.

لا أسف على سجن المزة، فهو رمز ذكريات أشبه بالكوابيس. وكشخص عانى من التنكيل على أيدي العرب والإسرائيليين وأكلت من لحمه سجون العرب وإسرائيل أرى أن يُخَلّد يوم إغلاق المزة كيوم انتصار النور والحياة على الظلام والموت في الوطن العربي. إنه يوم مشهود ويشهد للدكتور بشار الأسد على أنه امتلك بعد النظر وأردى ذلك الجب في غياهب الصفحات المظلمة من تاريخ الأمة. وأكاد لا أرى قلب مناضل عربي لم يخفق فرحا لهذا التطور الذي أراه هائلا على الساحة العربية. وآمل أن يأخذ القادة العرب عبرة من هذا ومن سجون العالم التي لاقت مصيرها المحتوم نحو التهاوي والانهيار.

أقدم الرئيس السوري على خطوة جريئة نأمل ألا تتوقف عند مجرد اغلاق سجن. من المتوقع إن من يقرر إلغاء سجن لعين كهذا ويأمر بتحويله إلى مؤسسة للعلم لا يمقت السجن فحسب وإنما يملك حمل اغلب احتمال رؤية أكثر شمولية لتتعلق بالإنسان والأمة والبناء والتقدم. وكشاب متعلم ومطلع على التطورات العالمية في مختلف المجالات ربما أيقن الأسد أن مأساة الأمة تكمن في قهر الإنسان وإلغاء الحريات وسَوق الناس سَوقا وكأنهم قطعان ماشية دهماء. عاش الأسد في بريطانيا ولمس بصورة مباشرة مجالات التقدم العلمي والتقني والإداري والرقي الإنساني، وربما وجد أسبابا يفسر بناء عليها نجاح الغير وهزيمتنا أمامه وأمام تحديات الحياة.

إذا كان الأسد قد تأثر فعلا بأسباب التقدم فإنه من المتوقع أن يخطو خطوات أخرى نحو تحرير الإنسان.فلا يكفي إغلاق سجن وإنما المطلوب هو إغلاق ملف الاعتقال السياسي وإلى الأبد. حرية الرأي والتعبير لا تشكل جريمة يعاقب عليها القانون ويجب أن تكون فضيلة تنير للناس طريق التفاعل الحر والجدل التفاهمي من أجل بناء الأمة. بالتأكيد لا يود عربي أن يرى سجنا ينهار بينما يتم نقل المساجين إلى سجون أخرى. السجن لا ينهار إلا بحرية المعتقلين، وإلا فالسجن باق حتى لو تغيرت الأسماء. والأمل ما زال كبيرا في تسريح كل المعتقلين السياسيين حتى لو حصل ذلك بالتدريج.

كما هو الحال بالنسبة لأي دولة أخرى، سوريا قوية بحرية أبنائها وأبناء العرب، وهي ضعيفة بعبودية أبنائها وأبناء العرب. الشعب الحر هو الشعب القوي لأنه مبدع، إذ لا إبداع بدون حرية. الحر مبادر ومفكر ويحسن التصرف والاختيار ويعمل على تنمية شخصيته وأدائه باستمرار، أما العبد أو الفاقد لحريته أو مسلوبها فتبعيّ لا يملك رأيا ولا يأخذ بزمام المبادرة ولا يحسن التخطيط والتدبير. الحر شجاع وواثق من نفسه ويقبل على عمله بقناعة ورجحان عقل وحصافة، أما العبد فمهزوم من الداخل ولا يفعل إلا ما يؤمر. الحر يبني ويتقدم والعبد لا يتقن إلا طاعة الأوامر دون إتقان العمل. هكذا هي تجربة الشعوب مع الحرية والعبودية. انطلقت الشعوب التي أعطت الحرية قدرها نحو الأمام محققة إنجازات متوالية، وأخفقت الشعوب التي أصرت على قيم الاستعباد ولم يكن نصيبها سوى الهزائم المتتالية.

وإذا كان لسوريا أن تحقق طموحاتها في الوحدة وتحرير الأرض والتقدم الاقتصادي والاجتماعي فلا مجال أمامها، كما هو الحال بالنسبة لأي دولة عربية أو أمة أخرى غير العرب إلا أن تحرر الإنسان. يجب أن يتحرر الإنسان من الوصاية ومن عقلية الذين يظنون أنهم يملكون الحقيقة المطلقة ومن دعاة الحرص على المصلحة الوطنية. المصلحة الوطنية لا تتحقق برؤية شخص أو مجموعة من الناس، ولا الحقيقة تنبثق من عقول ظنية مغلقة ولا الوصاية أنجبت شبابا عباقرة. لندع الإنسان يفكر ويعبر عن نفسه ويتفاعل مع الآخرين. حيوية التفاعل ذاتها تسقط كل الترهات والآراء الضعيفة والفذلكات الفكرية والسلوكية، وهي تلقائيا تفرز الطروحات الذكية والصائبة وتمجد السلوكيات الإيجابية. المجتمع لا يحتاج إلى"فرازة"سياسية نخبوية لتقول نعم ولا أو صح وخطأ، فهو بديناميكيته قادر على التمييز بين الخبيث والطيب، هذا عندما يكون الفرد حرا ولا يعاني من طغيان على قدراته التمييزية.

ربما يخرج علينا من يقول أن الحرية تقود إلى الفوضى والتي بدورها تشكل خطرا على الشعب والدولة والأمة. لقد أثبت التاريخ خطأ هذه المقولة لأن الفوضى ذاتها تعمل ضد حرية الإنسان، وأن الحرية تصبح منقوصة إذا حوصر المرء بأجواء

فوضوية. أي أن الأحرار لا يتعايشون مع الفوضى ولا بد أن يتحركوا لإنهائها من أجل أن تنطلق طاقاتهم التمييزية وقدراتهم الخلاقة. أجواء الفوضى لا تلائم إلا العبيد الذين لا يقوون على ممارسة إنسانيتهم فيلجأون إلى ما يعوضهم عن النقص بأعمال أشبه ما تكون بالحيوانية. ولهذا نجد الفساد الإداري والوساطات والمحسوبيات منتشرة في المجتمعات التي تكبت أبنائها وتقمعهم، ونجد الاختلاسات والسرقات وضعف المؤسسة التعليمية والإعلامية والصحية في الأجواء السياسية المغلقة التي تلاحق الحريات. وهكذا. بمعنى أن التخلف حسب التحليل التاريخي والنفسي لا ينفصل عن الفوضى ويرتبط ارتباطا وثيقا إن لم يكن عضويا بغياب حرية الإنسان.

والمسألة أن العبد ليس هو العبد وحده، وإنما السيد هو عبد أيضا إن لم يكن يعاني من عبودية أقسى من تلك التي يعاني منها المستبعد. فلولا أن السيد يرى في الحرية خطرا على مصالحه لما عمل على استعباد الآخرين، وهو بذلك يبادل حرية الإنسان بمصلحته الخاصة. وبما أن المصلحة هي التي تحكمه فهو غير حر ومستعبد لهذه المصلحة. إنه لا يؤمن بحريته الذاتية ويعمل باتجاه شهواته التي تقوده بالتالي إلى الطغيان على الآخرين من خلال ما يملك من قوة. لو آمن بحريته لانطلق وأخلى سبيل الآخرين للانطلاق مما يمهد السبيل نحو العمل المبدع الذي يحقق مصالح الجميع والمصلحة الخاصة لكل فرد. عندها تكون المصلحة نتاج إبداع الإنسان بدل أن تكون نير السيطرة عليه.

وحيث أن غياب الحرية يتلازم مع إلحاق الظلم بالآخرين فإنه من المتوقع أن يتولد شعور جماهيري بالظلم فوعي به فتفكير بما يجب أن يُعمَل فحركة تقود إلى متاعب للجميع وربما إلى سفك دماء ومجاعات. الاستبدادي يخاطر بمستقبله وربما بمستقبل أبنائه من خلال حالة عدم الاستقرار التي يصنعها ظلمه للآخرين. إنه رأس الفوضى مهما حاول أن يدعي غير ذلك. وهذا ما يفسر حتمية زوال الظالمين والاستبداديين عبر التاريخ. إنها علاقة جدلية تصادمية حيث أن الاستبدادي يحفر قبره بنفسه أو يتبع سياسات تحمل في داخلها بذور القضاء عليها، وغالبا ما يكون التصادم عنيفا دمويا.

وربما يطلع علينا من يقول أن الحرية تهدد الأمن الوطني والقومي خاصة في ظل أوضاع الصراع الدائر بين الأمة العربية وأعدائها وبالأخص إسرائيل. إنها تفتح المجال أمام الناس للتعرض لإغراءات الأعداء المادية مما يمكنهم من تجنيد عملاء وجواسيس. وفي هذا الصدد أشير إلى أن التجسس لصالح العدو عبارة عن عمل بذيء وغير محترم ولا يقدم عليه إلا الوضيع الذي لا يحترم نفسه. المرء مسلوب الإرادية وغير القادر على المبادرة لا يشعر بالاحترام في داخله ولذاته، وهو المرء المقموع الذي تحاصره الأوامر والنواهي من كل جهة. إنه لا يمتلك نفسه ولا يختزن تقديرا لذاته ولم يعتد الحصافة والاعتماد على الذات فيسهل سقوطه أمام الإغراءات. أليس في هذا ما يفسر سقوط الكثيرين من أبناء الأمة العربية أمام شهواتهم؟ ألم تخترق الماسونية صفوف الأمة إلى درجة أن حكام دول عربية انتسبوا إليها؟ وألم تخترق أجهزة المخابرات الأجنبية وبالأخص الأمريكية والصهيونية المواقع والمؤسسات الحساسة في مختلف الدول العربية؟ هل حَمَى القمع والقهر الأمة من الاختراقات أم أن الشعور بالضعة والهوان قد أدى إلى نخر جسد الأمة من قمة الهرم إلى القاعدة؟

يشعر المرء بقيمته الذاتية وأهميته في أجواء الحرية، ويتمكن معها من التخلص من مشاعر الذل والهوان والهامشية والتبعية. عندها يتولد لديه الشعور بالاحترام الذاتي ويأنف أن يكون أداة لأحد أو مطية لإغراءات يقدمها العدو. وبهذا الإنسان تنحسر ظاهرة العملاء والجواسيس وتصبح الأمة أكثر منعة أمام محاولات العدو لاختراقها.

ثم من قال أن التجسس في أيامنا هذه يرتكز أساسا على أنماط تقليدية في تجنيد الأشخاص، أو أن الكشف عنه يعتمد على كثرة العيون؟ أساليب التجسس تتطور كل يوم مع تطور العلوم والتقنيات المصاحبة لها. لم يعد لشخص يحمل آلة تصوير ويقترب من معسكر أهمية، فهناك أجهزة الرصد والتصوير الأليكترونية التي تجوب الأرض والسماء. أما تخابر الجاسوس مع العدو فلم يعد قابلا للإخفاء إلا بجهد اللقاءات الشخصية أو باستعمال أساليب تخابر بدائية، إذ أن رصد المكالمات والرسائل لم يعد أمرا صعبا مع تطور أجهزة التصنت والمتابعة والتشويش. إنما يبقى من المهم ملاحقة الأفراد الذين يتعاملون مع العدو ولكن دون أن يكون ذلك مبررا لقمع حريات الناس.

من خلال ما قام به الرئيس السوري حتى الآن من خطوات نحو ملاحقة الفساد وتسريح العديد من المعتقلين وتزايد درجة الانفتاح على التطورات العالمية يمكن الاستنتاج إلى وعي متبلور لديه حول مختلف الأمور التي تم طرحها. لكن من الصعب أن نستنتج فيما بعد إذا كانت هذه الخطوات تتم ضمن برنامج متكامل . وهذا ما ستبديه لنا الأيام. وستكشف لنا الأيام أيضا البعد العربي في كل هذه الخطوات والرغبة السورية في أن تصبح محورا جديدا متجددا في صنع التاريخ العربي الحديث.

يتعطش الإنسان العربي بخاصة ذلك المثقف والكاتب والمفكر والأديب إلى الحرية، ويتمنى أن يرى دولة عربية تحترم أبناء هذه الأمة وتبعث الإنسان العربي من جديد. حاصرت الحكومات العربية أبناءها إلى درجة لم يعد المبدع قادرا على البقاء

في الوطن العربي وعليه أن يرحل إلى لندن أو باريس للتعبير عن نفسه. وخلال إقامته في لندن لا بد أن أحتك الرئيس الأسد بعدد من هؤلاء الهاربين من وجه القمع، ولا بد أن أخذ فكرة عن أهمية هؤلاء في بناء الأمة. فهل بإمكانه أن يجعل دمشق المكان الذي يرتحل المبدع العربي إليه أم لا؟

إذا وضع هذا الأمر في ميزان الربح والخسارة فبالتأكيد هناك أرباح صافية بدون خسائر. ما المانع أولا أن تكون عاصمة عربية هي البديل للعواصم الأوروبية ويبقى الإنتاج الفكري العربي ملكا للأمة العربية وعلى أرضها ومباشرة لأبنائها. أليس في هذا ما يجعل من تلك العاصمة محط الأنظار وتجمع الأفذاذ ومركز الإنتاج الفكري الذي يعتبر قاعدة القيادة والتقدم؟

الحياة الفكرية النشطة حيوية للتغيير الاجتماعي وما ينبثق عنها من تغيير اقتصادي وسياسي وثقافي. نحن أمة بحاجة إلى التغيير والرحيل عن عادات وتقاليد بالية وترسيخ أنماط سلوكية جديدة تقوم على احترام الإنسان وحريته في المشاركة في مختلف المجالات العامة. ونحن بحاجة إلى تحديث المؤسسات السياسية والاقتصادية وانبعاث المؤسسات التعليمية والإعلامية. التحديث والتغيير لا يتمان بدون فكر ومفكرين وعلماء في مختلف مجالات العلم وميادين التقنية. تستطيع أي دولة عربية أن تقوم بهذا العمل الهام شريطة أن تتوفر لها قيادة ذات أفق واسع وتتمتع بإرادة قوية على مواجهة التحديات. وإنني على ثقة أن مثل هذه القيادة ستلاقي دعما ومؤازرة ووقفة شجاعة من قطاعات عريضة في مختلف أرجاء الوطن العربي. ولا أخال أن القيادة السورية المتميزة الآن بشبابها عاجزة عن لعب هذا الدور الهام. إنها ستحظى بدعم وستغسل عن نفسها الآثار التي خلفتها إشكاليات التنصيب على كرسي الرئاسة.

المركزية الفكرية تقود في النهاية إلى الريادة في مختلف الحقول وستؤدي إلى تقدم يحتاجه الشعب السوري كما تحتاجه الأمة العربية. وفوق ذلك فإنها ستذيب مفهوم الحدود القائم الآن والذي جلب الويلات على رأس الأمة العربية. وما دامت سوريا تتحدث عن الوحدة ولا تقوى على ترسيخها من على القمة، فلتعمل من أجلها من القاعدة. إذا تطورت الأوضاع بحيث تصبح هناك تفاعلات فكرية وأدبية فإن منطق الاختلاف الثقافي الذي حاولت أن تبنيه الأنظمة العربية ولتعزز فيه الدولة القطرية سينهار لصالح توجه فكري عربي عام.

هل بإمكان الرئيس السوري أن يستمر في خطواته إلى الأمام؟ وهل لديه الرغبة في الاستمرار نحو بناء المجتمع العربي الحديث الذي يقوم على احترام الإنسان والمنعة والتقدم؟ ستجيبنا الأيام القادمة. ومن هنا حتى يأتينا الجواب أود أن أقول للرئيس أن سوريا أجمل بدون المزة.